ابن خلدون وسبنسر

مقابلة بين فلسفتيهما

« طلب الينا احد قراء المقتطف المهتمين بدرس فلسفة ابن خلدون ان نعيد نشر الفصل الذي عقده المرحوم الدكتور صروف في المقابلة بين فلسفة ابن خلدون وفلسفة هربرت سبنسر. فلبينا الطلب بعد ما حذفنا مقدمة الفصل وكانت تحتوي على نبذتين في تاريخ الرجلين وسيرتيهما »

﴿ المبدأ الاول ﴾ وجوب تمحيص الاخبار قبل اثباتها في كتب التاريخ

قال ابن خلدون ان فن التاريخ محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط. لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً وسميناً ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . وقدم شواهد كثيرة على ذلك وفي جملتها قصة معاقرة الخليفة هرون الرشيد للخمرة التي افضت الى نكبة البرامكة واثبت فسادها بالمأثور من حال الرشيد وتدينه وما كان عليه من صحبة العلماء والاخيار. وذكر قصة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك على مائدته وهي حجة قاطعة على ان الرشيد كان يجتنب الخمر وان ذلك كان معروفاً عند بطانته واهل مائدته . ثم بيّن اسباب تطرّق الكذب الى الاخبار فقال « ان منها التشيُّعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطتهُ حقهُ من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقهُ من كذبهِ واذا خامرها تشيُّع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله . ومن الاسباب المقتضية لذلك ايضاً الثقة في الناقلين والذهول عن المقاصد والجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع »

وهذا المبدأ غاية في الاصابة ولكن ابن خلدون لم يراعهِ دائماً ولا اصاب في تطبيقه كل

الاصابة لان الاخبار التي اثبتها لا يخلو بعضها من مظنة الشك والتي جملها في مظنة الشك بل قطع بفسادها هي غير فاسدة كما مرّ والأدلة التي أقامها على فسادها واهنة وبعضها منقوض . وسبحان من تفرّد بالكمال

ومهما يكن من عدم اصابته في التطبيق فالمبدأ صحيح ثابت ويجب اتباعه دائماً وقد ذكره هربرت سبنسر في مواضع كثيرة من كتبه وبيّن اصابته . قال في الفصل الأول من كتابه في علم السيولوجيا (أي علم العمران) في عرض الكلام على الشواهد التي يستشهد بها رجال السياسة من التواريخ والجرائد والرحلات اثباتاً لصحة نظام يريدون وضعهُ او سنّة يقصدون سنّها انهم ينقلون الاخبار على عواهنها غير ملتفتين الى اغراض القائلين بها او ان اهواءهم واغراضهم الشخصية الوطنية والسياسية والدينية واميالهم الطبيعية واسلوب التهذيب الذي هُذّبوا به كل ذلك يتغلب عليهم ويحرفهم عن جادة الحق ومثّل على ذلك بالسمكة التي في الماء فانها لا ترى في المكان الذي هي فيه بسبب انكسار النور ويزداد انحرافها عن موقعها الحقيقي بازدياد انحراف الناظر اليها . وقال في الفصل الخامس من هذا الكتاب ان من عوائق فن السيولوجيا فساد الاخبار التي يتناقلها الناس وان الاخبار المدخولة شائعة الآن كما كانت شائعة في الازمنة الغابرة . وذكر امثلة لذلك منها ان بعضهم وصف اهالي زيلندا الجديدة بأنهم اهل نباهة وشجاعة وقساوة . وبعضهم وصفهم بانهم ضعفاء جبناء لطفاء والوصفان على طرفي نقيض وهما في شعب واحد . ثم قال انهُ انتشرت من برهة وجيزة في اسواق مدينة لندن صورة عصفور لهُ رأسان وبدن واحد وقال ان واحداً رأى هذا العصفور واخبرني انهُ مثل صورته تماماً . ثم جاء وصفهُ في جريدة اللانست الطبية فاذا هو عصفوران كاملان لهما بدنان ورأسان ولا اتصال بينهما الا من ظهريهما فكأن محبة الاستغراب تقود الناس عن غير قصد منهم الى تقرير الامور على غير حقيقتها . واطال الكلام في هذا الموضوع وافرد لهُ فصولاً كثيرة بيّن فيها تأثير التشيع المذهبي والسياسي والتعليمي . والظاهر انهُ هو ايضاً لم يسلم مما نهى غيرهُ عن الوقوع فيه فقد ذكر في مقدمة «المدن السياسية» ان بلاد المكسيك كان فيها مدن وسيعة فيها مائة وثمانون الف بيت. وهذا من المبالغة بمكان ولا سيما لانهُ يزيد كثيراً عما قرره كثيرون من المؤرخين فقد قال زوارزو الذي زار المكسيك سنة ١٧٢٦ انها ستون الف ساكن وهذا قول واحد من اتباع كورتز ايضاً. ولكن الذي يطالع كتب سبنسر ويرى ما فيها من الشواهد التي تعدّ بالألوف الكثيرة لا يعجب من وقوع الخطإ القليل فيها ولا سيما لان الشواهد يجمعها لهُ المساعدون من كتب القوم وهو يتولى تنسيقها وتجريد الكليات من جزئياتها

﴿المبدأ الثاني﴾ ان التعاون على المعاش والدفاع هو من اول اسباب الاجتماع الانساني ودعائمه

قال ابن خلدون في الفصل الاول من الكتاب الاول «ان قدرة الواحد من البشر قاصرة

عن تحصيل حاجته من الغذاء غير موفية لهُ بمادة حياتهِ منهُ فلا بدَّ من اجتماع الكثير من ابناء جنسهِ ليحصل القوت لهُ ولهم بالتعاون فقدر الكفاية وكذلك يحتاج كل واحد منهم في الدفاع عن نفسهِ الى الاستعانة بابناء جنسهِ واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فاذاً هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني والاَّ لم يكمل وجودهم » وقال في فصل آخر ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم في المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيلهِ والابتداء بما هو ضروري منهُ ونشيط قبل الحاجي والكمالي

وقال هربرت سبنسر في هذا المعنى ان التعاون لا يتم بغير الاجتماع والاجتماع لا يدوم الاَّ بالتعاون والاَّ انحلَّت عراهُ وتفرق الناس ايدي سبا . وقد يكون الغرض من التعاون تحصيل ما لا يتمكن الفرد الواحد تحصيله من المعاش او ما يعسر عليهِ تحصيلهُ اذا انفرد وحده او ما لا يستطيعهُ وحدهُ من مدافعة الاعداء. والغالب ان يكون الغرض منهُ مجموع هذه الاغراض كلها. ثم افاض في شرح تقسيم الاعمال والتعاون عليها وعلى الاعداء وتأثير ذلك الاجتماع الانساني وبيَّن تدرُّج الناس فيهِ من اوطإ اطوار التوحُّش الى اسمى درجات التمدن وذكر امثلة لكل ذلك من بين اهل هذا العصر لان فيهم كل درجات البداوة والحضارة التي تقلَّب فيها البشر

﴿ المبدأ الثالث ﴾ ان العصبية دعامة اخرى من دعائم الاجتماع الانساني

قال ابن خلدون ان احياء البدو يزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة . واما حللهم فيذود عنها من خارج حامية الحي من انجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الاَّ اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد لانهم بذلك تشتدُّ شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة كل واحد على نسبه وعصبيتهِ اهم. واما المنفردون في انسابهم فقلَّ ان تصيب احداً منهم نعرة على صاحبه . فاذا اظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسهِ خيفة واستيحاشاً من التخاذل. وقال في فصل آخر ان الملك والدولة العامة انما يحصلان بالقبيل والعصبية لان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة والتذامر . ثم ان المُلك منصب شريف فيقع فيهِ التنافس غالباً وقلَّ ان يسلّمهُ احدٌ لصاحبهِ الاَّ اذا غُلب عليهِ فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيءٌ منها لا يقع الاَّ بالعصبية . ثم بيَّن بتمهيد ذلك انهُ اذا استقرَّت الدولة وتمهَّدت فقد تستغني عن العصبية كما هو مشاهد في كثير من البلدان

وقال هربرت سبنسر ان الاجتماع يقتضي ائتلاف الطبائع وهذا يستلزم وجود العصبية وهي تقوى بالوراثة وتتمكن في الجنس كلهِ . واستشهد على ذلك بشواهد كثيرة لا محل لاستيفائها هنا وقال ان ذلك كان معروفاً من قديم الزمان فان هيرودوتس ذكر الاسباب الرابطة للشعب اليوناني فقال انها اولاً الدم ثانياً اللغة ثالثاً المذهب رابعاً العادات والاخلاق. ثم بيَّن

ان عدم العصبية هو الذي حل ببعض الممالك القديمة وهو الذي آل الى تقويض اركان غيرها من الممالك التي لم تزل قائمة الى يومنا هذا . وتشاءم بانسلاخ سلطة الهند عن الحكومة الانكليزية يوماً ما لأنها غير مرتبطة بها بعرى العصبية

﴿ المبدأ الرابع ﴾ ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة

قال ابن خلدون وسبب ذلك ان النفس اذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر واهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه . واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل منهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها

وقال هربرت سبنسر ان بين المتوحشين اناساً تصح مقابلتهم بأفضل المتمدنين . وبعض الشعوب الشرقية القديمة التي لم تزل في حال البداوة لا تُعرف فيهم خلة الكذب فهم أصدق من أصدق الاوربيين . وبعد ان ذكر شواهد كثيرة على ان البداوة قد تكون اقرب الى الخير من الحضارة قال ان اهالي دمارا الذين يقال انهم خالون من الشفقة لانهم ضحكوا عند ما رأوا واحداً منهم قد افترسه حيوان مفترس ليسوا باقل شفقة من الرومانيين الذين كانوا يقيمون المشاهد العظيمة ليروا فيها هجوم الأسود على الأسرى ولا من كراكلاً الذي قتل عشرين الفاً من اصدقاء اخيه ثم اجبر جنوده المجلس العالي على ان يضعه في مصاف الآلهة . وبعد ان افاض في هذا الموضوع قال ان الخير لا يتبع العمران دائماً بل ان درجات العمران الأولى اقتضت القساوة والبطش لان اشد الناس قساوة وبطشاً هم الذين تغلبوا على غيرهم في اول الامر ووطدوا دعائم الاجتماع الانساني . ثم استنتج ان كل الحروب القديمة وما اظهره البشر من مظاهر القساوة والعتو كان ضرورياً لنمو نوع الانسان وتقويته وانهُ لولا ذلك لكان سكان الأرض يأوون الآن الكهوف والغياض كأضعف المخلوقات . ولله در القائل

حبُّ السلامة يثني همَّ صاحبهِ عن المعالي ويغري المرء بالكسلِ
فان جنحتَ اليهِ فاتخذْ نفقاً في الارض او سلماً في الجو واعتزلِ

وقد اتفق رأي ابن خلدون وهربرت سبنسر على ان البداوة اقرب الى الخير من الحضارة ولو كان مراد ابن خلدون من شرور الحضارة غير مراد هربرت سبنسر كما رأيت

﴿ المبدأ الخامس ﴾ ان آفة الملك الترف

قال ابن خلدون ان الدولة تكون في اولها بدوية فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده ويكون خرجها وانفاقها قليلاً فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف فيكثر لذلك خرج اهلها ويكثر خرج السلطان كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية فيستحدث صاحب الدولة انواعاً من الجباية يضربها على البياعات . وربما يزيد ذلك في اواخر الدولة زيادة بالغة فتكسد الاسواق بفساد الاموال ولا يزال ذلك يتزايد الى ان تضمحل الدولة . وقال في مكان آخر ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم . واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيراً عامّاً في جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة فكسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعرّ الناس في الآفاق في طلب الرزق فخفّ ساكن القطر وخلت ديارهُ وخربت امصارهُ واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة . واستأنف الكلام في هذا الموضوع مراراً كثيرة وبيّن فيه ان ترف الدولة يكثر مظالمها ويفسد حال رعيتها ويسرع باضمحلالها وقدَّم على ذلك شواهد كثيرة من الممالك التي خربت في ايامه او قبلها

وقال هربرت سبنسر ان التعاون يفضي الى وجود النظام السياسي ولهذا النظام منافع ومضار وقد تزيد مضارهُ على منافعهِ لانهُ يوجب الجباية على الرعية للقيام بنفقات الملك وبطانته وحاشيته وقد يزيد جور الحكام وترفهم فيزيدون الجباية زيادة فاحشة حتى تربي مضارهم على منافعهم ومثّل على ذلك ببلاد مصر في ايام الرومانيين فانها دولة رومية وضعت عليها حينئذٍ اثقل الجبايات وابتزّت خيراتها منها فكانت تقوم بنفقة ولاتها وحاميتها وبنفقات الجنود الرومانية حيث حلّت . وكانت الاموال التي يتبرّع بها الشعب المصري لاعانة الدولة الرومانية لا تلبث طويلاً حتى تصير ضرائب تؤخذ منهم جبراً حتى هلك الفلاّح والاكار وصارت الاراضي الخصبة قفاراً ماحلة وعلا صوت الساط الى السماء وملأ صراخ الناس الفضاء فاتوا هم ومواشيهم من شدة الفقر والعناء واجبر الاحياء على دفع الضرائب التي كان يدفعها الاموات والسعيد من ساعدتهُ المقادير على الفرار من بلاده الى بلاد الاعداء . واستشهد ايضاً بمملكة فرنسا التي لم يلبث ملكها ان اخضع الامراء والغى مظالمهم الكثيرة حتى ركب مراكب البذخ والترف وضرب على الرعايا ضرائب ثقيلة فتزايدت الجباية من احد عشر مليوناً الى ثلثمائة واحد عشر مليوناً فعمّت الفاقة ومات الناس جوعاً او هجروا اوطانهم وهاموا على وجوههم وما زالت الخطوب تتفاقم حتى انجلت عن الثورة الفرنسية بكل اهوالها